

## الدور الثقافي والحضاري لمدرسة مازونة الفقهية خلال العهد العثماني

أ.قدور بوجلال  
أ.د دحوفغورور  
جامعة وهران 1 أحمد بن بلة.

### مقدمة

عرفت مدينة مازونة<sup>1</sup> كغيرها من المدن الجزائرية العريقة خلال العهد العثماني نهضة ثقافية متميزة، ويعود الفضل في ذلك إلى كثرة المؤسسات الثقافية والدينية المنتشرة بها مثل المساجد والجوامع والمدارس والزوايا. حيث كانت هذه المؤسسات من أهم مراكز الإشعاع الثقافي آنذاك ونقطة تحول حاسمة في حياة الطلبة الذين اجتهدوا في طلب العلم والرقى إلى درجة العلماء والفقهاء، ومن بين أهم هذه المؤسسات المدرسة الفقهية التي لعبت دورا كبيرا في هذا المجال.

هذا وتعد مدينة مازونة من المدن التاريخية العريقة والأصيلة، حيث كانت قاعدة تاريخية هامة في قلب جبال الظهرة وملتقى لعناصر مختلفة وحضارات متعددة، وصفت منذ القدم بمدينة العلم والثقافة وسميت "بأم الأحكام المكنونة"، فامتدت بتاريخها إلى جذور الحضارات القديمة<sup>2</sup>. كما لعبت مراكز التعليم بها أدوارا طلائعية رئيسية في تكوين الطلبة وتخرج العلماء الذين كان لهم أيادي بيضاء في إغناء تراث الحضارة العربية الإسلامية والمحافظة عليه في العهد العثماني بالجزائر، وعلى هذا كان بالوطن المازوني كثير من العلماء والفقهاء النابغين في ميدان علوم الحديث والفقه والفتوى على مذهب الإمام مالك، الأمر الذي جعل منهم محط أنظار العلماء من مختلف أقطار المغرب الإسلامي، بدليل ما قاله أبو راس الناصر: "... وقد مررت بطريقي بالشيخ... أبي عبد الله الشيخ محمد بن لبنة... فسألني

عن وجهتي... فقلت له ذاهب لمازونة قال: لم؟ قلت: لقراءة الفقه فقال:  
والقرآن؟ فقلت له: نعرفه بأحكامه وأنصاه وما يتعلق به...<sup>3</sup>.

وبناء عليه وقع اختيارنا في هذا المقال على هذه المؤسسة العريقة لمحاولة  
التعريف بها وبدورها الثقافي والحضاري الذي لعبته منذ تأسيسها، والوقوف  
على أهم التطورات التي عرفتتها وهذا وفق خطة عمل تتكون من العناصر  
التالية:

1- جذور تأسيس المدرسة.

2- العوامل المساعدة في ظهور المدرسة.

3- النظام التعليمي للمدرسة.

4- أهم مشايخ وعلماء المدرسة.

5- خاتمة.

### 1- جذور تأسيس المدرسة:

تعد مدرسة مازونة الفقهية من أقدم المدارس التي أسست في العهد  
العثماني<sup>4</sup> ، حيث تشير لوحة العتدين الموجودة بمدخلها، وإحدى الوثائق  
التاريخية التي إطلع عليها الباحث إلى أنها تأسست من طرف الشيخ محمد  
بن الشارف المازوني في سنة 1029هـ/ 1619م فسوس بها مؤسسها حوالي  
أربع وستين سنة، وعنه تخرج الحافظ مصطفى الرماصي فتوارث أبناؤه  
المدرسة وتداولوا على التدريس بها، وأبرزهم الشيخ محمد بن علي المعروف  
بأبي طالب الذي أصبح على رأسها منذ سنة 1189هـ/ 1775م وخلفا  
لوالده وبقي مدرسا بها أربعة وأربعين سنة إلى وفاته<sup>5</sup>.

ومن الملاحظ أنه قد أشارت إحدى الوثائق بلن مؤسس المدرسة بل وحق  
خلفه كانوا يتأصلون نسبا من الأشراف، حيث يمتدون في أصولهم النسبية  
إلى البيت النبوي عبر الشجرة الحسينية، وقد جاء فيها: "هو العلامة والمجاهد  
والشهيد المرحوم سيدي هني بن محمد بوطالب بن علي بن عبد الرحمن بن  
امحمد بن الشارف بن أحمد بن علي بن عبد العزيز بن علي بن منصور بن

محمد بن أعمار البلداوي نسبة إلى جماعة العيديون، الساكنون بإزاء الهبط... وجلهم إسمه محمد بن عبد الله بن موسى بن مسعود بن مسعود بن الحسن بن سليمان بن إبراهيم بن عيسى بن محمد بن أحمد بن إدريس بن إدريس بن عبد الله بن الحسين بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وابن فاطمة بنت محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>6</sup>.

كما يؤكد هذا النسب الشريف عبد الله بن محمد بن الشارف بن علي حشلاف، أثناء حديثه عن الشجرة الحسينية وفروعها الطيبة بقوله: "...ومن فروع مولانا عبد العزيز حفدة الشيخ أبو طالب بن الشيخ بن الشارف المازوني، فمنهم شيخنا وشيخ إفريقية على الإطلاق المرحوم الشيخ سيدي محمد بن سيدي هي المكنى أبي راس..."<sup>7</sup>.

وعلى ما يبدو أن التعليم بمدينة مازونة قد كان على درجة كبيرة من الأهمية، حيث أن شهرة مدرستها الفقهية تجاوزت الحدود الإقليمية امن المناخ الثقافي الذي ساد المنطقة، وبالخصوص تلمسان وجامع القرويين بالمغرب الأقصى والزيتونة بتونس. وزيادة على هذا، فلقد كانت مدرسة مازونة الفقهية تسع من حيث الحجم ما بين 60 إلى 80 طالبا، حيث اعتبر جاك بيرك Jacques Berque هذا العدد مقياس المراحل الزاهرة للمدرسة<sup>8</sup>.

## 2- العوامل المساعدة في ظهور المدرسة:

يعد العامل السياسي من أهم العوامل الأساسية في حياة الدول من جهة وفي حياة العلماء والمؤرخين من جهة أخرى، فهو يؤثر في كتاباتهم وتوجهاتهم بطريقة أو بأخرى، فيصبح المؤرخ أو المؤلف يؤرخ لحدث ما انطلاقا من البيئة السياسية التي وجد فيها، ويعر بقلمه عن ذلك الحدث التاريخي الذي يراه مهما وله تأثير كبير على الحياة السياسية في البلاد، بل وحتى على المراكز والمؤسسات الثقافية لأية حضرة ومدى انعكاساته على العلماء والفقهاء في تلك الفترة، وعليه وجدت مجموعة من العوامل والظروف ساعدت على نشأة وتأسيس مدرسة مازونة الفقهية وهي كالاتي:

#### أ- اختيار مدينة مازونة عاصمة للبايلك الغربي:

بمجيء عهد الأتراك مثلت مدينة مازونة بموقعها الجغرافي الهام وطاقتها الاقتصادية، وسمعتها الفكرية قبلة للعثمانيين. حيث أنه بموجب التنظيم الإداري الذي عرفته الإيالة الجزائرية سنة 1562م والقاضي بتقسيم البلاد إلى ثلاث باييكات أصبحت مازونة عاصمة لبايلك الغرب ابتداء من سنة 1563م<sup>9</sup>.

ومن خلال ذلك التقسيم لعبت هاته الحاضرة دورا بارزا لا سيما في الناحية الغربية من البلاد أين تعاقب على حكمها ثمانية عشر بايا، بدليل ما ذكره الأغا بن عودة المزارى: "... وفي الحقيقة أنه هو الثاني في المرتبة لكون الترك تولوا على الجهة الغربية، وجعلوا فيها باي قبل الجهة الشرقية وقاعدته وهران، وهذا الثالث كان منوعا على نوعين أحدهما مازونة وأول باياتها حسن بن خير الدين باشا وسلم في وظيفته ثم أبو خديجة ثم صواق ومات مسموما من سم سقته له زوجته، ثم السايح وبقي في الملك إحدى عشر سنة ومات ثم ساعد ومنه إلى محمد ابن عيسى تولى بـمازونة عشرة بايات، وذهب عن حفظي ما تعلق به منهم ثم محمد بن عيسى وهو السادس عشر من باياتها ثم شعبان الزناقي الذي توفي بالجهاد في وهران..."<sup>10</sup>.

وعلى ما يبدو أن اختيار مازونة كعاصمة للبايلك الغربي قد أحدث تغييرا كبيرا على الأحداث السياسية في المنطقة بعامته وعلى المدينة بخاصة، فقد أصبحت مركزا قياديا مهما في مواجهة أبشع الحملات الصليبية الإسبانية اتجاه الإيالة الجزائرية. وزيادة على هذا فلقد وجدت عدة اضطرابات وحوادث تزعمها بعض رؤساء ورجال القبائل والطرق الصوفية ضد السياسة العثمانية بالجزائر كحوادث درقاوة والتيجانية التي جرت البلاد إلى فوضى كبيرة مست شظاياها علماء حاضرة مازونة، خصوصا وأن سقوط مدينة بجاية سنة 1510م إحدى أكبر مراكز الثقافة في الجزائر آنذاك ونزوح علماءها إلى الداخل، أدى إلى ضرورة وجود حيز تعليمي يعطي انبعاثا علميا آخر وجد على الميدان بتأسيس مدرسة مازونة الفقهية<sup>11</sup>.

### ب- التركيبة الإجتماعية المازونية ودورها في تفعيل الحركة الثقافية:

من الملاحظ أن الجانب الثقافي والعلمي لحاضرة مازونة قد طبع بميزات حضرية شكمتها خصوصية التركيبة الإجتماعية للمدينة، حيث أن أهم ميزة إنفردت بها هي التنوع والتعدد في عناصرها العرقية والدينية بل وحق المذهبية<sup>12</sup>.

ومما لاشك فيه أن حاضرة مازونة قد عرفت كبقية الحواضر الأخرى علما قدوم جاليات وطوائف مختلفة ومتعددة، أهمها الجالية الأندلسية التي توافدت على المنطقة إثر قرارات الطرد الإسباني لبقايا المسلمين المتواجدين في الأندلس. فاستقرت بالمدينة ابتداء من القرن الخامس عشر الميلادي وتواصلت في توافدها طيلة القرن السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، بدليل ما ذكرته الواليش فتيحة: "... وتعتبر الجالية الأندلسية على رأس قائمة الجاليات، وذلك نتيجة ارتفاع عددها وأهميتها في التركيبة الاجتماعية. كما نشير إلى أن الحضر والأندلسيين تقاسموا النشاطات الحرفية والتجارية والثقافية والفكرية، حيث كانت هذه الممارسات والأنشطة هي الصفة الغالبة والمميزة لهذه العناصر..."<sup>13</sup>.

ومقارنة بما سبق نستنتج أن دخول المهاجرين الأندلسيين إلى مدينة مازونة، قد أعطى دافعا قويا للحركة العلمية، حيث استفادت من ثقافتهم وأدبهم وطريقتهم في التعليم نتيجة علاقاتهم القديمة مع المراكز الثقافية والعلمية الموجودة على مستوى البلاد العربية الإسلامية.

### 3- النظام التعليمي للمدرسة:

لقد استحدث المشرفون على مدرسة مازونة الفقهية عدة قاعات للصلاة وبيوتا للوضوء وأخرى للتدريس وغرف لسكنى الطلبة ومكتبة وبيتا للمدوس، كما جعلوا للمدرسة التي تعمل على تخريج العلماء والفقهاء وأصحاب الوظائف الدينية كالإمامة والخطابة والقضاء والفتوى وغيرها، نظام داخلي محكم ودقيق يضبط أوقات التدريس والعطلة وعدد أحزاب

القرآن المتلوة كل يوم، ومحتوى العلوم الفقهية المدروسة وأجور الموظفين وشروط الإقامة في المدرسة بل وحق شروط الفصل منها<sup>14</sup>.

#### أ- شروط الالتحاق:

تعتبر مدرسة مازونة الفقهية من بين المدارس التربوية التي تخرج منها العديد من العلماء والفقهاء خلال العهد العثماني، لخاصيتها القائمة على تدريس الفقه المالكي ومجموعة من العلوم الدينية والدنيوية المختلفة. حيث أشار مولاي بالحميسي في حديثه عن شعار الطالب بمدرسة مازونة على وجود تسلسل هرمي للموظفين والطلبة والعلماء بها، كان قائما على شروط العلم الأربعة وهي:

شروط العلم أربعة	فأولها التفرغ له.
وثانيها وجود جدّ	تبلغ للفتى أمله.
وثالثها فعن شيخ	يمد للهدى سبله.
ورابعها مذاكرة	مع الإخوان والفضلاء <sup>15</sup> .

- وعليه فلقد كان الالتحاق بمدرسة مازونة الفقهية، يقتضي من العالم أو الطالب الإنصياح لمجموعة من الضوابط والشروط هي كالآتي:
- ضرورة حفظ القرآن الكريم لأنه واجب ديني لا سيما فيما يخص الطلبة المسافرين والمقيمين بالمدرسة، وفي هذا المقام يقول أبو راس الناصر: "... فقلت له ذاهب لمازونة قال: لم؟ قلت: لقراءة الفقه فقال: والقرآن؟ فقلت له: نعرفه بأحكامه وأنصاهه وما يتعلّق به..."<sup>16</sup>.
  - الانضباط الذاتي وضبط النفس والالتزام الخلقي بالنسبة للطلبة المقيمين بالمدرسة.
  - أن يقبل الطلبة المقيمين النوم باستمرار في المدرسة.
  - حرمان طالب العلم من كل الخدمات الاجتماعية والتغطيات المالية، وفي هذا المقام يقول مولاي بالحميسي: "... ولم يكن الطلبة آنذاك يحملون بالمنح

- والخدمات الاجتماعية، ولا بالتغطية الطبية ولا بمؤسسات الترفيه شأن إخوانهم اليوم ولعل في الحرمان حافظا للدراسة"<sup>17</sup>.
- عدم السماح لأي أحد من الطلبة القاطنين بمازونة، ولا من رجال إدارة العلم بها للتوم في المدرسة ما عدا المسافرين من العلماء والطلبة.
  - ضرورة تكفل المجتمع المازوني بالإنفاق على المدرسة الفقهية وطلبها باعتبارها صدقة جارية، بدليل ما ذكره مولاي بالحميسي: "... ولا يقتصر العون على ما ذكرنا بل تكفلت العائلات بغسل ثياب الطلبة، كما بادر أهل الإحسان بدفع تكاليف الكراء والتدفئة وشراء الشموع للإنارة"<sup>18</sup>.
  - احترام مواقيت التدريس (التفرغ للعلم) والمراجعة (المذاكرة).
  - احترام الشيخ المشرف على التدريس وجميع المشائخ الآخرين، والانصياع لأوامر الشيخ واستشارته في الغايات العلمية وغيرها.
  - ضرورة الحفاظ على النظام الداخلي والالتزام به كاللباس الخاص أو الحصول على الطعام والماء والحطب وباقي الاحتياجات، وهذا فيما يتعلق بالطلبة المسافرين المقيمين بالمدرسة"<sup>19</sup>.
  - ضرورة التخفيف من مستلزمات العلماء والطلبة، بدليل ما ذكره مولاي بالحميسي: "... ورغم عدد الطلبة، فقد وجد هؤلاء بمازونة من فرج كربهم فلقوا في المجتمع- مهما كانت الظروف- العون الكافي، وكان إحسان المحسنين العامل الأساسي لنجاح التمدرس... لم يكن في وقتهم داخلية تضمن لهم الأكل فتكفل بذلك السكان والأعيان..."<sup>20</sup>.
  - عدم السماح للمقيم من الطلبة بالخروج من المدرسة إلا عند الضرورة.
  - لا يشترط أن يكون المقيم من المدينة أو البادية.
  - ضرورة فصل الطالب المقيم من المدرسة إذا لم يظهر نبوغه في العلم، فيبعد عنها ويقع اختيار مجاور آخر في مكانه، أو إذا أساء مجاورة صحبة أقرانه أو قام بأعمال أو أقوال غير لائقة"<sup>21</sup>.

## ب- مواد التدريس وطرقه:

من خلال إطلاع الباحث على العديد من المصادر الفقهية بخزانة كتب مدرسة مازونة، وجد في ثناياها أسماء عدة كتب اعتمدت في التدريس لسنين طويلة بالمدرسة، وبقيت تدوس حتى عهد أبو راس المازوني<sup>22</sup>. وكذلك طريقة التدريس القائمة على العلوم الدينية حيث كانت المادة الأساسية فيها- إن لم نقل الوحيدة- هي الفقه المالكي، بدليل ما قاله أبو راس الناصر: "... ثم انصرفت من مازونة وقدمت إلى أم عسكر ما معي شيء من المال ولا غيره سوى معرفة الفقه وحده... قال: هذه عادة طلبة مازونة..."<sup>23</sup>. ضف إلى ذلك ما ذكره الشيخ مصطفى الرماصي قائلًا: "أما كان علم الفقه أفضل العلوم بعد كتاب الله وسنة رسول الله إذا به تعرف الأحكام ويتميز الحلال من الحرام، وقد صنّف فيه الأئمة الأعلام دواوين لا تحصى..."<sup>24</sup>.

وعلى ما يبدو أن الكتاب العمدة في الفقه بالمدرسة قد كان مختصر خليل - مصف - في الفقه المالكي، وتبعاً لذلك لقب مشايخ المدرسة وطلبتها "بالخليليين"، بدليل ما ذكره مولاي بالحميسي: "... والكتاب العمدة في الفقه بالمدرسة هو مختصر خليل، الذي غطى مختلف التصانيف في المشرق وفي المغرب، كرسالة أبي زيد القيرواني وكتاب لباب الألباب وتحفة بن عاصم وغطى موطأ مالك ومدونة سحنون... فاقتصر برنامج التدريس على هذا المصنف دون سواه، وقد أجمع أهل المذهب على عظيم "فائدته..."<sup>25</sup>.

ومما تجدر الإشارة إليه، أن علماء وطلبة مازونة قد ركزوا على الجزء الأول من المختصر، بدليل إشارة مولاي بالحميسي قائلًا: "... وفي مازونة اشتهر المختصر ومن مازونة نبغ عنصر أسرار خليل وعم نوره في الأقطار، وبقي هذا الكتاب أكثر المتن الفقهية تداولاً في الجزائر، على الرغم من إيجازه الذي يصل إلى الإبهام. وما من شك أن دعاء الشيخ خليل في مقدمة كتابه كانت من الدواعي التي فتحت أعين العلماء والمتعلمين، إذ قال: (نسأل الله أن ينفع به من كتبه أو قرأه، أو حصله أو سعى في شيء منه)، ويلقبه الناس



لشهرته بالكتاب وتسميه العوام سيدي خليل، والكتاب الأصلي في أربعة أجزاء: كتاب الصلاة وكتاب الزكاة، وكتاب البيوع وكتاب الإيجار...<sup>26</sup>.

ومقارنة بما سبق نستنتج أن علماء وطلبة مدرسة مازونة قد اقتصروا في تكوينهم الفقهي على المذهب المالكي بمختصر الشيخ خليل، لا سيما الجزء الأول من الشرح المعنون بـ "منح الجليل على مختصر العلامة خليل". والذي احتوى على عدة أبواب هي كالآتي:

أ- باب ما يرفع الحدث وحكم الخبث بالمطلق وفيه:

- فصل الطاهر ميت مالا دام له... إلخ.
- فصل في بيان حكم إزالة النجاسة وكيفيةها.
- فصل في فرائض الوضوء وسننه وفضائله.
- فصل في آداب قضاء الحاجة.
- فصل في نواقض الوضوء.
- فصل في موجبات الغسل وواجباته وسننه ومندوباته وما يناسبها.
- فصل في مسح الخف بدلا من غسل الرجلين في الوضوء.
- فصل في التيمم.
- فصل في مسح الجرح أو الجبيرة أو العصابة.
- فصل في الحيض والنفاس والاستحاضة وما يتعلق بها.

ب- باب في بيان أوقات الصلوات الخمس والأذان والإقامة وشروط صحتها وفرائضها وسننها ومندوباتها ومكروهاتها، وأحكام السهو عنها أو فيها وفعلها في جماعة وقصرها وجمعها وشروط الجمعة والسنن وصلاة الجنائز، والتغسيل والتكفين والدفن وما يناسبها وفيه:

- فصل في الأذان والإقامة وما يتعلق بهما.
- فصل في بيان شرطين من شروط صحة الصلاة.
- فصل في ستر العورة.
- فصل في استقبال القبلة.
- فصل في فرائض الصلاة وسننها ومندوباتها ومكروهاتها.

- فصل في القيام وبدله ومراتهما في الفرض.
- فصل في قضاء الفائتة وترتيب الحاضرتين والفوائت في أنفسها ويسيرها مع حاضرة.
- فصل في سجود السهو وما يتعلق به.
- فصل سجدة التلاوة.
- فصل في بيان حكم فعل الصلاة في جماعة.
- فصل في أحكام استخلاف إمام.
- فصل في أحكام صلاة السفر.
- فصل في بيان شروط الجمعة وسننها ومنذوباتها ومكروهاتها ومسقطاتها وما يناسبها.
- فصل في صلاة الخوف.
- فصل في صلاة العيد.
- فصل صلاة الكسوف والخسوف.
- فصل في صلاة الإستسقاء<sup>27</sup>.

وإلى جانب ذلك احتوى هذا الجزء من المختصر على باب في أحكام الزكاة وباب في الصيام والاعتكاف، وباب في الحج والعمرة وباب في المباح والمكروه والمحرم من الأطعمة والأشربة، وفي الضحية والعقيقة واليمين والنذر والجهاد، وفي بيان أحكام المسابقة التي يستعان بها على الجهاد، وفي أحكام النكاح وتوابعه فكان بذلك مرجعية فقهية لعلماء وطلبة مازونة خلال العهد العثماني<sup>28</sup>.

وتيسيرا لعملية تدريس المختصر، استند مشايخ وعلماء مازونة على بعض الشروح الموضوعية حوله ومنها شرح "محمد الخرشي" ورسالة "محمد أبي زيد القيرواني"، ومجموعة من التأليف هي لعلماء من المدرسة. حيث ذكر محمد بن علي السنوسي ذلك بقوله: "فمنهم وهو آجلهم وأكملهم وأفضلهم ناصر الدين المعمر الجيهنذ الأكبر الولي الأشهر، مهيع العلوم والمعارف أبو طالب سيدي محمد بن علي بن الشارف، قرأت عليه النصف الأول من

المختصر مرارا قراءة تحقيق وتدقيق، مطرزة بجزيل الفروع النقلية والفوائد السننية يلتزم شرح الخرشي غالبا مع حاشيته عليه...<sup>29</sup>.

وإلى جانب مختصر الشيخ خليل درس مشايخ وعلماء المدرسة الفقهية مجموعة أخرى من العلوم، كعلم الحديث اعتمادا على صحيح البخاري ومسلم وموطأ الإمام مالك ويؤكد ذلك محمد بن علي السنوسي في قوله: "وقرأت على... أبي العباس أحمد بن هني النصف الثاني من المختصر مرارا... وسمعت عليه مجالس من البخاري ومثلها من مسلم والموطأ..."<sup>30</sup>. كما عرف المضمون التعليمي الذي تلقاه الطلبة في المدرسة علم التوحيد بالإعتماد على العقيدة الصغرى للشيخ السنوسي، بدليل ما ذكره محمد بن علي السنوسي: "... وقرأت على حفيده من بعده أبي العباس أحمد بن هني... وأخذت عليه علم التوحيد وناولني شرحه الكبير على صغرى الشيخ السنوسي..."<sup>31</sup>.

هذا وقد وجدت أسماء عدة كتب اعتمدت في التدريس بمازونة لسنين طويلة خلال العهد العثماني، لاسيما فيما تعق بالعلوم اللغوية كاللحو العربي بالاعتماد على ألفية ابن مالك والأجرومية، وبعض المصادر اللغوية كلقاموس المحيط للفيروز أبادي، وجوهرة الأخضرية وسلمه. بالإضافة إلى كتب ابن الحاجب وابن عرفة ومجموعة أخرى من التأليف الفقهية التي لقيت إقبالا كبيرا في اقتناءها من طرف علماء مدرسة مازونة الفقهية<sup>32</sup>.

لقد كانت طريقة التدريس بمدرسة مازونة قائمة على عدة مناهج، خاصة منها قيام أحد الطلبة بقراءة فقرة من الكتاب المقرر تدريسه، ثم يقوم الشيخ بشرحها حسب ما تجود به قريحته وينتهي إليه حفظه وإتقانه، فيفسح المجال خلال الدرس أو عقبه للطلبة للمناقشة والتعقيب وطرح الأسئلة إثراء للدرس وتعميقا للفائدة<sup>33</sup>.

وهو ما أكده مولاي بالحميسي حينما أشار إلى ختم المختصر من طرف طلبة مازونة بقوله: "وكان ختم المختصر يوما مشهودا، يحضره الطلبة

والأعيان والأهالي والزوار يأتي الناس راجلين أو راكبين فصار المكان لا يسع هؤلاء، فلا تجد موضعا داخل الجامع أو خارجه أو بجواره... ويطول الحفل لطول البرنامج من تلاوة القرآن وخطب حول المختصر وأشعار بالعامية أو بالفصحى، وأدعية للشيخ الأحياء منهم والأموات. ويتساءل المرء كيف استطاع طلبة ذلك الوقت فهم النص وهضمه وحفظه؟ ولعل الجواب في طريقة التعليم في تلك المدرسة باللغة المبسطة ليفهم الدرس أو التفسير بسهولة، وكان لهذه المنهجية أكبر الأثار فزادها التعليم تحببا وترغيبا، وكانت المحاضرات لا تقتصر على النحاة ورجال الأدب، بل كانت في متناول الجميع... فلا غرابة إذا جاء أهل البلدة- في أوقات فراغهم- إلى الدروس يجنون الفوائد من مشايخ رزقوا العلم الواسع والقدرة وملكة التبسيط والتيسير، وبذلك كان الجو العام لائقا والوسط مواتيا لأغلبية الناس ومن مميزات هذا التدريس أن المشايخ كانوا يسمحون بالمناقشة والسؤال، فيستعدون للرد وللإجابة المقنعة دون انفعال أو جرح للطالب...<sup>34</sup>.

وعلى ما يبدو أنه قد كانت تدرس شروحات وتقييدات لمهات الفقه المالكي، فيبتدئ الدرس بقراءة الكتاب المراد تدريسه ويقتصر فيه على تقرير المتن وحل المشاكل ويطلبون الدروس مع ذلك، بحيث يجعلون من طلوع الشمس أو قبلها أو بعدها بقليل ليسير إلى قرب الزوال درسا واحدا ومن بعد صلاة الظهر إلى قبيل المغرب درسا، ولا يستطيع ذلك إلا مهرة ممن لا يحتاج غالبا إلى مراجعة في تقرير المتن وحل أشكاله ويسمون ذلك "سردا". فبذلك تيسر إلقاء مثل مختصر الشيخ خليل في أربعين يوما والألفية في عشرة أيام من تجزئة المختصر بأربعين جزءا لكل يوم جزءا، نصفه في درس أول للهار ونصفه في درس آخره، ومن تجزئة الألفية بعشرة أجزاء لكل يوم جزء كذلك إلى غاية انتهاء الطريقة التعليمية لمشايخ وعلماء المدرسة الفقهية<sup>35</sup>.

وإلى جانب ذلك وجدت طريقة ثانية للتدريس بالمدرسة والقائمة على طريقة التقليد والرواية وترديد أقوال المتقنين وحفظها حفظا سطحيا، بدليل ما ذكره بوكفة يوسف في حديثه عن مدرسة مازونة الفقهية قائلا: "...

فكل من جلس من المشايخ للتدريس يمكن أن يؤفد لطلبته كراسة أو أكثر شرحاً، أو حاشية على علم معين، وكانت تتم بأن يجلس الشيخ في صدر المسجد على الكرسي المرتفع عن الأرضية، حق يرى جميع الطلبة وينظرونه مرتدياً عمامة وجبة وفوقها أحياناً برنس، وكان لباس المشايخ هذا يميزهم عن الآخرين...<sup>36</sup>.

وبما أن التعليم كان من المستوى العالي بحاضرة مازونة، فلقد كانت الحلقة العلمية بالمدرسة تبدأ بأن يطلب الشيخ من أحد طلبته بقراءة نص من المصنف والذي يمكئ موضوع الدرس، حيث يبدأ الشيخ مباشرة في شرح النص وفي هذا المقام يقول أبو القاسم سعد الله: "يدخل الطالب إذن مكان الدرس فيجد المدرس أو المدرسين وحولهم الطالب في حلق أو نصف دوائر، وكل مدرس يتناول مسألة أو كتاباً معيناً، فإذا كان الطالب قد كون فكرة واضحة عن مدرس بعينه قبل مجيئه، فإنه يقصده مباشرة ويجلس إلى حلقاته ويتابع دراسته معه في المادة التي يدرسها أو المواد..."<sup>37</sup>.

وعليه فلقد كان للشيخ بالمدرسة الحرية في وضع البرنامج التعليمي وفي تحديد أوقات التدريس وعقد الحلقات العلمية، والتي يكون التركيز فيها من طرف الشيخ على الفكرة العامة من النص، فيأخذ أولاً في شرح المسألة وتوضيحها والاستشهاد لها من محفوظه (المنقول) ومعقوله (الحواشي والتصانيف الفقهية). بحيث قد لا ينهي الشيخ المسألة في نفس الحلقة، ذلك أن ميزة الشيخ الناجح هي الخوض في الجزئية الواحدة عدة مرات ومن عدة وجوه، فكلما أطلال الشيخ في المسألة وأفاض فيها كلما كان ذلك من ميزات نجاحه، وعادة ما كان يختم حلقاته العلمية بإملاء خلاصات على الطلاب فينسخونها بحذق وعناية<sup>38</sup>.

أما إذا كان الشيخ بالمدرسة قد تمز بتبحره في العلوم الفقهية وسعة فكره غير متقيد بالمنقول والمسموع من المسائل، فلقد كان من الضروري على الطلبة أثناء الحلقة العلمية تسجيل الدرس كله حريصين في ذلك على ألا

يفوتهم شاردة أو واردة من درس شيخهم خلال عملية التلقين، حيث كان بعض المشايخ بالمدرسة الفقهية يحفزون الطلبة على حب الإطلاع والتزود بالمعرفة، وذلك من خلال اعتمادهم على المعقول من التصانيف والشروح والحواشي الفقهية المحتوية على العديد من المسائل الدينية والدينية، ويؤكد ذلك محمد بن علي السنوسي في قوله: "فمنهم... أبو طالب سيدي محمد بن علي بن الشارف قرأت عليه النصف الأول من المختصر مرارا قراءة تحقيق وتدقيق، مطرزة بجزيل الفروع النقلية والفوائد السنوية... وقرأت على حفيده... أبي العباس أحمد بن هني النصف الثاني من المختصر... وناولني شرحه الكبير... كما ناولني... حاشيته المذكورة على الخرشي في جزئين ضخمين... أمرا لي بإقراء ما أقرؤه عليه، وبمراجعة ما يقرؤه ويطلبه لنا حفيده المذكور من شرح الخرشي..."<sup>39</sup>.

وعلى ما يبدو أن الحفظ والرواية كان من بين المميزات الأساسية لشيخ المدرسة، بإطلاعه على العديد من العلوم وأسانيدها وحفظ الكتب الكاملة كشرح مختصر الشيخ خليل والرسالة وابن الحاجب وغيرها من الكتب والشروح. كما إمتاز بعض مشايخ المدرسة بكثرة التأليف في مختلف العلوم التي درسوها لطلابهم في شكل شروح أو ملخصات أو في شكل كتب ودواوين مستقلة، اعتمد عليها طلاب مدرسة مازونة بدرجة كبيرة في مسيرتهم العلمية وتكوينهم الفكري والديني.<sup>40</sup>

وبالإضافة إلى ذلك عرفت عملية التدريس بالمدرسة الفقهية وجود طريقة أخرى، مثلت بوجودها منهجا تدعيميا واستدراكا معرفيا لدى الطلبة ذوي الفهم البطيء وهي طريقة المراجعة. حيث تضمنت مدرسة مازونة في نظامها التعليمي وجود مشايخ متطوعين يراجعون للطلبة الدرس الذي قرؤوه على مشايخهم في حلقة للتدريس، وقد ساهمت هذه الطريقة بوجودها في تسير الحفظ والفهم وتبسيط المسائل الغامضة على الطلبة.<sup>41</sup>

ومما لاشك فيه أن نظام الامتحانات لم يكن معروفا بالمدرسة خلال العهد المدروس، وإفما كان الشائع- حسب العيد مسعود- تكليف الشيخ للطالب الذي أخذ بسهم وافر من العلوم بمساعدة الطلاب على تكوين فكرة عن الدرس الجديد قبل أن يشرحه، وبإعادة الدرس الذي سبق أن ألقاه، فيرفع من جهة مستوى بعض العناصر الضعيفة ويتمرس من جهة أخرى على إلقاء الدروس، في محاولة من الشيخ لترسيخ المعارف العلمية بفتحها لباب المناقشة بعد نهاية كل حلقة علمية، ذلك أن عملية التدريس قد تضمنت في وجودها الفعلي طرفين الشيخ والطالب ومن أجل إنجازها يجب أن يشترك الطرفان في تسييرها وتسييرها. فعملية الحوار القائمة على طرح أسئلة واستفسارات حول موضوع الحلقة توصل بالطلبة إلى درجة الاستيعاب والفهم، وتعمل باستمرار على توسيع قاعدة المعرفة عندهم، على أنه حين يختم أحد الطلبة الدرس يمنحه أستاذه إجازة خاصة لتدريس علم معين أو عدد من العلوم أو إجازة علمة لتدريس كافة العلوم<sup>42</sup>.

كما تطرق محمد سي يوسف هو الآخر إلى نهاية الدروس قائلا: "تكون نهاية الدروس في تلك المؤسسات عادة بمنح إجازة للمستحق من طرف الشيخ الذي درسه، وهي شهادة تثبت نوع الدراسة والكتب التي درسها لهذا الطالب، وهي تسمح له بمزاولة للتدريس إن كان يريد ذلك"<sup>43</sup>.

ومما تجدر الإشارة إليه أن مدرسة مازونة الفقهية قد كانت على درجة كبيرة من التنظيم المحكم لهياكلها التعليمية، فلقد وجدت العطلة الأسبوعية والصفية لطلبتها، بدليل ما ذكره مولاي بالحميسي قائلا: "وكانت الدروس لا تتوقف سوى مساء الأربعاء ويوم الخميس، فيستريح الطلبة في العطلة الأسبوعية وما أوجههم إلى ذلك... وكذلك تتوقف الدراسة خريفا وشتاء وربيعا أما الصيف- فصل الحر والاسترخاء- فيتوقف النشاط إلى أن يحل اعتدال الطقس فتستأنف الدروس..."<sup>44</sup>.

#### 4- أهم مشايخ وعلماء المدرسة:

من الطبيعي أن يكون عمدة التعليم هو المعلم باعتباره المرشد الموجه والمصدر الأساسي لأية معرفة علمية وثقافية للطالب، حيث مثلت مدرسة مازونة الفقهية في العهد العثماني حيزاً للتعليم العالي وقبلة للعلماء والمثقفين من الداخل والخارج، بالنظر إلى العلوم الدينية واللغوية التي كانت تلقن بها. وبذلك حمل المعلم بها لقب الشيخ كما اتخذ التدريس بها صفة وراثية بانتقاله من الأب إلى ابنه وإن فقد إلى حفيده، وهذه الكيفية أصبحت خصوصية المدرسة في أن فئة المشايخ والعلماء كانت تحتكر حق التدريس وهو بذلك مهنة وراثية<sup>45</sup>.

لقد اجتمعت بمازونة نخبة من الشמוש الساطعة عكفوا على التدريس متطوعين فأفادوا الأفراد والعباد، كما كانوا أئمة يقتدى بهم في العلم والدين والورع لقنوا طلبتهم متوناً وشروحات ومختصرات وأراجيز ومنظومات وفتاوى وذخائر الحكم، لدرجة أن قال عنهم أبو راس الناصر: "جهابذة... فهم ذوو الخبرة التامة بعلم الشريعة ولمختصر خليل حفظاً ولفظاً ومعنى"<sup>46</sup>.

حيث كانت ميزتهم الأولى أنهم من أهل البلد الشيء الذي ضمن لمدرسة مازونة الاستقرار ومكها من مواصلة مهمتها التعليمية، فلا غرابة إذا لُقبت مازونة بمدينة العلماء. وعليه فإن قائمة المشايخ والعلماء الذين أشرفوا على عملية التدريس بمازونة هم كالآتي:

#### أ- أبو طالب محمد بن علي الشارف المازوني:

يعتبر أبو طالب المازوني من أبرز علماء الحاضرة خلال القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي<sup>47</sup>، لما عن نسبه فهو محمد بن علي أبو طالب بن عبد الرحمن بن محمد بن شارف بن أحمد بن علي بن عبد العزيز بن علي بن منصور بن محمد بن أمير البلدوي نسبة إلى جماعة العيديون، وجلهم اسمه محمد بن عبد الله بن موسى بن مسعود بن الحسن بن سليمان بن إبراهيم بن عيسى بن محمد بن إدريس الأصغر بن إدريس الأكبر



بن عبد الله الكامل<sup>48</sup>، ولد بمدينة مازونة في بداية القرن الثاني عشر الهجري الموافق للقرن الثامن عشر الميلادي<sup>49</sup>.

هذا ويعد الشيخ محمد أبو طالب من الفقهاء والعلماء النابغين بمازونة ومن الذين كان لهم إطلاع على العلوم الفقهية والكلامية، حيث اشتهر بنزعتة الصوفية وحماسه الديني فأثناء المعارك التي خاضها الباي محمد الكبير لتحرير مدينة وهران من الاحتلال الإسباني التحق الشيخ أبو طالب المازوني برباط وهران سنة 1205هـ/1791م وعمره يتجاوز الثمانين سنة رفقة ابنه الوحيد هني على رأس مائتي طالب (200) من طلبة وعلماء مدرسة مازونة الفقهية حيث قصدا مدينة معسكر ثم إيجها إلى وهران مشيا على الأقدام، أين ألحق الباي محمد الكبير أبو طالب المازوني بقيادة الرباط استعدادا لفتح وهران وتحريرها من الاحتلال الإسباني<sup>50</sup>.

ومن الملاحظ أن أبو طالب المازوني قد فقد ابنه هني في إحدى معارك تحرير مدينة وهران سنة 1791م سميت بمعركة مسرغين وعمره حوالي 22 سنة، وبعد فتح وهران سنة 1792م بنى العثمانيون المدرسة الفقهية وألحقت بها بيوتات لإيواء الطلبة بدليل ما ذكره مولاي بالحميسي: "أعيد بناؤها بأموال الأوقاف، فأصبح للمدرسة قاعة كبرى للصلاة وبيوت لإيواء الطلبة ومرافق عدة وفناء مظلّي تقام فيه الدروس..."<sup>51</sup>.

وزيادة على هذا فلقد حبست على المدرسة الفقهية مجموعة من الكتب منها صحيح مسلم الذي أهدها الباي محمد الكبير للعالم والشيخ أبو طالب المازوني- والذي تحتفظ المدرسة بجزء منه لحد الآن-، حيث كان ذلك الفعل الإجرائي العثماني مكافئة على إسهاماته الحربية والعلمية، خصوصا وأنه فقد ابنه الوحيد هني وإسهاماته السابقة الذكر في إرساء قواعد السلطة العثمانية وتثبيت الأمن والاستقرار في البلاد، بل وحتى دوره العلمي والزعامة الروحية التي أكسبته مكانة كبيرة حظي بها عند علماة السكان وأيضا عند حكام زمانه<sup>52</sup>.

ومما تجدر الإشارة إليه أن حياة أبو طالب المازوني العلمية قد كانت مليئة بالمجالسات للمشايخ والعلماء والفقهاء المختصين في الفقه والأدب وجميع العلوم العقلية، حيث درس أبو طالب علي والده علي بن عبد الرحمن باعتباره أحد المدوسين في المدرسة الفقهية. كما تتلمذ علي جده بن امحمد بن الشارف وأبو طاهر محمد عبد السميع بن أبي العرفان إبراهيم الكوران، ومحمد بن علي بن أحمد بن عبد الرحمن الشريف نسبا الجعدي وطنا وحسن بن علي بن محمد بن عمر العجيجي المكي دارا<sup>53</sup>.

كما تولى أبو طالب المازوني للتدريس بالمدرسة الفقهية بعد وفاة والده سنة 1189هـ/1775م فنال شهرة ومكانة مرموقة بين علما الناس والحكام لغزارة علمه، حيث دامت فترة تدريسه مدة 44 سنة إلى أن توفي سنة 1233هـ/1818م<sup>54</sup> مخلفا وراءه مجموعة من العلماء قد أشرف على تدريسهم ولعل من بينهم: حفيده أحمد بن هني ومحمد بن علي السنوسي، أبو عبد الله محمد بن عبد السلام بن أبي زيد اليازمي وأحمد بن عيسى المستغانمي. تاركا أيضا لمجموعة من التأليف الفقهية منها شرحه لقصيدة الصغرى للشيخ السنوسي التلمساني في التوحيد سماها "درة الحواشي في حل ألفاظ الخرشي" بدليل ما ذكره محمد بن يوسف الزياتي: "... وفيهم العلامة ولي الله الشيخ سيدي محمد بن أبي طالب المازوني، صاحب الحاشية التي أسماها دارة الحواشي في حل ألفاظ الخرشي..."<sup>55</sup> ، كما ألف كتابا في علم التوحيد أعتبر من التأليف التي إستند عليها طلبة وعلماء مدرسة مازونة الفقهية خلال العهد العثماني<sup>56</sup>.

#### ب- عبد الرحمن بن علي بن الشارف المازوني:

يعتبر عبد الرحمن بن علي بن الشارف المازوني الأخ الثالث لمحمد أبو طالب بن علي بن الشارف<sup>57</sup> ، وهو من الأعلام البارزة بمازونة حيث كان معاصرا لابن حمادوش عبد الرزاق الذي شهد له كتابه الذي ألفه على مختصر السنوسي، وهذا نصه: " الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا أثيرا إلى يوم الدين، أشهد بأن العالم العلامة

للخبر الفهامة سيدي الحاج عبد الرزاق أصلح كتابه الذي ألقه على مختصر السنوسي على الشيخ البركة المتبرك به العالم العلامة للخبر سيدي أحمد الورززي، كما كتبه الشيخ المذكور بخطه وقت تاريخه المذكور وقيد شهادته عبد الرحمن بن علي بن الشارف المازوني وفقه الله أمين<sup>58</sup>.

### ج- الصادق الحميسي المازوني:

يعد الشيخ الصادق الحميسي بن علي بن أبي عبد الله المغيلي المازوني حفيد أبي يحيى زكرياء المغيلي أحد علماء حاضرة مازونة خلال العهد العثماني، وهو ينتمي إلى أسرة توارث أفرادها القضاء والتدريس. كما أخذ محمد الصادق الحميسي عن كثير من علماء بلدته- مازونة- ثم التحق بمعسكر فدرس على عبد الله المشرفي، ليرحل بعدها إلى الأزهر فأكمل دراسته ثم عاد إلى مازونة، حيث تولى القضاء واستقر فيها بعد وهران لنفسه الوظيفة بعد فتحها سنة 1206هـ/1792م<sup>59</sup>.

ومن الملاحظ أن الصادق الحميسي المازوني قد كان يملك أعظم مكتبة علمية ورثها عن أجداده هذا من جهة، ومن جهة أخرى فتاريخ ميلاد هذا العالم غير معروفة شأنه في ذلك شأن جل أعلام هاته الفترة. أما عن وفاته فلقد توفي حوالي سنة 1828م<sup>60</sup>، كما جاء في إشارة الأغا بن عودة المزاري في كتابه طلوع سعد السعود على أنه من أعلام وهران ومن فقهاء البارزين<sup>61</sup>، لدرجة أن قام عبد الله المشرفي قاضي معسكر بمدحه أثناء زيارته لمازونة قائلاً فيه:

وأهلها خير أناس	مازونة خير القرى
إلا كريما أو مواس	لم تلق فيهم جنينا
حاز الفخار والثّراس	لا سيما قاض بها
والمجد خبر لا يقاس	العلم صار طبعه
سما بفكر ودرس	أكرم به من عالم
ولغة أبا نواس <sup>62</sup>	ضاهى بفقّه مالكا

كما ترك الصادق الحميسي عدة إنجازات علمية وفقهية منها مجموعة من الأحكام له ولإبن عمه الميلود قاضي المحلة بـمازونة، من بينها حكم أثبت فيه نسب أبناء سيدي الهواري نشره الجنرال المؤرخ ديدي (Didier) حسب إشارة أحد أحفاده المؤرخ الدكتور مولاي بالحميسي<sup>63</sup>.

د- الحسن بن محمد مصطفى المازوني:

يعتبر الشيخ سيدي الحسن من علماء مازونة المشاهير عاش في القرن الثاني عشر الهجري. ألف كتابين وهما:

- تحفة الملوك في حصر أصول الإرث المتروك.

- منهاج السلوك في شرح معاني تحفة الملوك<sup>64</sup>.

هـ- الشيخ إبن علي بن الشيخ أبي عبد الله المغيلي:

وهو والد الصادق الحميسي المازوني<sup>65</sup> وأحد شيوخ أبو راس الناصر العسكري الذي قال فيه: "ثم إنتقلت من قراءة شيوخ أبي علوفة المذكورين وهم أربعة كما مرلنا إلى القراءة على شيوخ مازونة، فجلست في حلقة العالم الكبير الفقيه الشهير الأحظي الأرضي الأمضي الأفضل الأنبل الأمثل الأقبل الذي ركض في ميدان المجاهدة، ووقف في مقام المشاهدة السني السني الخاشي الخاشع الأمدج الأنجد: شيخنا الشيخ إبن علي إبن الشيخ أبي عبد الله المغيلي ذي القراءة الصحيحة المؤسسة، والطلبة على بابه مقبلة ومعرسة كأه عبد الحميد أو أبو الفتح محمد إبن دقيق العيد، فكنت من جملة تلامذته ومعدودا من طلبته فقعدت في طرف الحلقة للزحام الكاض والضيق الفاحش الهاض، فكانت في الأعيان كحلقة إبن تيمية التي مدحها محمد أبو حيان وليس الخبر كالعيان، فاستفدت طرفا نافعا وأنا في السن يافعا، ثم نهض بي علي وفهني ما لديه إلى أن جلست بين يديه، وكنت في درسه دولا وللصواب في صور المختصر قولا فكأن لي منه بركة ونوالا ومنالا ومهابة وجلالا وصار يلحظني بعين الرضى ولم أر منه قط إغضاء..."<sup>66</sup>.

#### و- الشيخ محمد بن عبد السلام المازوني:

- يعد الشيخ محمد بن عبد السلام أحد قضاة وفقهاء حاضرة مازونة وأحد مدرسي مدرستها الفقهية الشهيرة<sup>67</sup>، حيث تخرج على يديه كثير من العلماء والطلبة أمثال أبو راس الناصر الذي قال عنه: ".. وكان القاضي محمد بن عبد السلام لا يحصل له الشاط في البحث والقراءة بالكد والحث إلا إذا رأى ذا التحقيق والمعرفة، وهو تلميذه الإمام محمد ابن عرفة فكثيرا ما يعترض فتواه بلحنه وفحواه مع أنها على قواعده تجرى كمسألة إسهاد الشفيع في غيبة المشتري، كذلك كنت أتكلم في مجلس شيخنا المذكور وأناقشه بما في الأمهات مزبور كمسألة دين المهريسقط الزكاة وإن أجل إلى موت أو بتات، وكمسألة خمر يتخلى رهن في دين عليه من أن ذلك رزق ساقه الله إليه إلى غير ذلك مما لا يحصى بعد ولا ينضب بحد"<sup>68</sup>.

#### ز- الشيخ السيد العربي بن نافلة:

- لقد كان الشيخ العربي بن نافلة من العلماء الذين تصدوا للتدريس بمدينة مازونة خلال القرن الثاني عشر الهجري (18م)<sup>69</sup> وفي هذا المقام يقول عنه تلميذه أبو راس الناصر: "ومنهم شيخنا المسن وليس به توان ولا كسل ولا وهن، الذي أروى قلوب الطلبة برحيق مختوم تقريره، وزين إفهامهم بنظم قلائد تحبيره وحلى ظواهرهم بأداب نهيه وأمره، وملاً بواطئهم بنفائس سره ليكون حصنا من كيد الشيطان ومكره. فلا يحوم حولهم معارض بسهمه ولا ساحر بسحره، الذي أفنى عمره بين تلاوة ودراسة وذكر ونافلة: شيخنا السيد العربي ابن نافلة صاحب الأصول والفروع، لها غروب في الأفئدة وطلوع وبراهين لها ظهور وسطوع، بين لهم ما خفي من معاني المختصر وألفاظه ويجيبهم بما تقر به أعين قرائه وحفاظه، وكان رضي الله عنه إذا أملى عليه قول المصنف "إن قدر على شيء فله أخذه" يقول: ما تقدم أيها الطلبة؟ فيبادره الحذاق بقول المصنف: "وليس له الأخذ منها لمن ظلمه بمثلها" فيتبسم قرأت عليه ثلاث سردات في ثلاث سنين فلا يمسك

كتاباً ولا يقرؤه في مجلسه وإنما حوى ثاني المختصر حفظاً ومعنى  
ولفظاً.....<sup>70</sup>.

- ومن الملاحظ أنه قد كان للشيخ العربي بن نافلة شهرة واحتراماً  
كبيرين بين أوساط الطلبة والعلماء، حيث أفنى عمره بين تلاوة القرآن  
ودراسة العلم فكان صاحب الأصول والفروع وحافظ معاني الشيخ خليل بن  
إسحاق المالكي. كما درس أبو راس الناصر على ابن الشيخ العربي بن نافلة  
المسمى أحمد، بدليل ما ذكره في فتح الإله: "... وكان ابنه: السيد أحمد من  
شيوعي أيضاً فكل ما أشكل علي في مجلس أبيه فهمه لي أتم فهم لله دره، ما  
أعلمه، وما أفهمه، وما أتمه في تأمله وبيانه، لولا رقة في لسانه له تقرير  
لطيف تبين لي فيه ما صعب علي بلا تكلف ولا تكليف، ما أحسنه من شيخ  
زاهد وورع عابد صاحب برهان وإتقان ومعرفة وإيقان..."<sup>71</sup>.

#### ح- الشيخ أحمد بن نافلة:

يعتبر الشيخ أحمد بن نافلة من فقهاء وعلماء القرن الثاني عشر الهجري  
(18م) وهو شقيق العربي بن نافلة<sup>72</sup> درس بمازونة وكان من شيوخ العلامة  
أبي راس الناصر الذي قال عنه: "... ومنهم شيخنا الورع الزاهد المستحضر  
لنظائر المختصر والمعاهد السيد أحمد بن نافلة المشهور، أخو شيخنا الأستاذ  
سيدي العربي المذكور ونظرت عليه في الثاني فكان له به خبرة كخبرته  
بالمثاني، واسع المجال في تحقيق الصرف وبيوع الأجال يعرفهما على التفصيل  
والإجمال..."<sup>73</sup>.

#### ط- الشيخ محمد بن عبد القادر القاضي:

يعتبر من أجل قضاة مازونة<sup>74</sup> قرأ عليه الشيخ أبو راس الناصر نفائس  
من باب القضاء والشهادات وأحكام الدماء، بدليل ما ذكره في فتح الإله: "...  
وحضرت مجلس السيد محمد بن عبد القادر القاضي المسهل به التقاضي  
المؤيد به المتقاضي، أجل قضاة مازونة المستقبل منهم والماضي، فقرأت عليه

نفائس كانت في لي كالقش في صورة من عاج في الدمى من باب القضاء والشهادات وأحكام الدماء<sup>75</sup>.

#### ي- الشيخ بن عوالي الزلماطي:

يعد الشيخ بن عوالي الزلماطي من جملة شيوخ أبو راس الناصر بمازونة والذي وصفه قائلا: "... وحضرت أيضا مجلس الصالح الوالي شيخنا السيد محمد بن عوالي الزلماطي المحب الزاهد الأنيس، كان يسرد لنا يوم الجمعة والخميس وقد اسر تفدت على صغر سني مثل سن ابن جني من كثير من الطلبة يشق حصرهم..."<sup>76</sup>.

#### ك- الشيخ بلقاسم بن محمد:

يعتبر من علماء مازونة تصدى للتدريس بالجزائر العاصمة ثم بمازونة ووهران، كما أصبح من كتاب أحمد باي بمدينة قسنطينة<sup>77</sup>.

#### ل- الشيخ الزناتي محمد المازوني:

يعد الشيخ محمد الزناتي المازوني أحد العلماء الذين برعوا في حفظ المختصر رفقة كل من العالم مصطفى بن هني المازوني والشيخ مصطفى بن يونس والشيخ محمد بن إبراهيم، حيث كان أولئك الشيوخ يتقنون مختصر الشيخ خليل في الفقه وهم شيوخ بوعلوفة بمازونة كانوا يسكنون بها على حد قول أبو راس الناصر. كما اشتهر بعض أولئك الشيوخ بمعرفة الأول أي الجزء الأول من المختصر والبعض الآخر بمعرفة الثاني من المختصر، والبعض مقصور على الفرائض لا يتعدها ولا يعرف سواها إلا أن المقصور عليها هو وحجة فيها. إلى جانب ذلك فلقد ذكر عنهم الحافظ أبو راس الناصر: "وقد وقفت على شرح مطول في الفرائض للشيخ الزناتي، وقد توفي رحمه الله قبل مجيئي فقرأت على الشيخ البدالي وهو معروف بالفرائض..."<sup>78</sup>.

#### م- الشيخ محمد الصادق بن أفغول:

يعد الشيخ محمد الصادق بن أفغول أحد العلماء الصوفية البارزين في مازونة، ومن الشيوخ الأجلة لأبي راس الناصر المعسكري، هذا الأخير الذي وصفه بشيخ الإسلام والخبير بعلم الشريعة والجامع بين العلم والدين، صاحب مدرسة مازونة الشهيرة. كما وصفه أيضا: "بالأكثر حفظا وأتقن العلماء لمصنف خليل معنى ولفظا، وهو الحافظ الزاهد الورع الناهد للقي الناسك الصو في السالك ذو الخبرة للتامة بعلم الشريعة، فكل مسألة صعبت على غيره فهي له مطيعة، كان قد جمع بين العلم والدين فكان المقتضي في سبيل الهادين المهتدين من الأقدمين وأكمل المتأخرين"<sup>79</sup>.

وزيادة على هذا فهي أبو راس الناصر يواصل في مدح شيخه الجلي بقوله: "... لم أرى مثله فيمن رأيت ولا حلمت على أجل منه فيما رويت ورويت، وكان للعلوم جامعا وفي فنونها بارعا، شئت إليه الرجال من حوالي زواوة وغريس، مقدا في معرفة الحديث على أقرانه منفردا بهذا الفن اللفيس في زمانه، أركى المعية وأذل اللوذعية لا يشق له غبار ولا يجري معه سواه في مضمار حسن، فهم السنة والكتاب بنكة تسحر الأبواب وفكر يفتح له غيره ما إستغلق من الأبواب، مستعينا برواية علوم ومدارك فهم أوقف نفسه على تدريس العلوم وقصرها، ولو شاء العاد أن يحصر كلماته لحصرها ومع ذلك له بالتجريد تعق وبكرامات الصالحين تحقق، وله مع ذلك في الأدب باع وكرم طباع لم يخل في بعضها من حسن إنطباع رحمه الله"<sup>80</sup>.

ومقارنة بما سبق نستنتج أن العالم والشيخ محمد الصادق بن أفغول كان قد جمع بين الحديث والسنة والفقه وأخلاق الفكر، ملما لكامل العلوم والفنون وبارعا في معرفة الحديث على أهله منفردا بهذا الفن اللفيس في زمانه ومعاصرا للشيخ أبو راس الناصر المعسكري. وعليه فلقد اشتهر ابنه محمد مثله أيضا بدليل ما ذكره عنه الحافظ أبو راس الناصر: "... شيخنا الأسعد الأمد الأنجد الأرشد... فمن رآه قال: ما أشبه الشبل بالأسد فإنه رحمه الله كثيرا ما يفتح علي ما صعب في مجالس أبيه، فكننت جعلت معولي



عليه، ولا أجلس في حلقة أبيه إلا إليه فحصل لي منه حظ كبير وخير في ثاني المختصر كثير مبارك أثير"<sup>81</sup>.

#### خاتمة:

من خلال ما سبق يمكن التأكيد على أن مدرسة مازونة الفقهية قد كانت على درجة كبيرة من الأهمية في النواحي الغربية للإيالة الجزائرية لاكتسابها لنظام راسخ وتقاليد متينة استمدها من صلتها بالتعليم في تلمسان والأندلس والمغرب الأقصى، فاستمرت تشع بالمعرفة حق بعد انتقال عاصمة البايك الغربي من مازونة إلى معسكر ثم إلى وهران، فكانت مقصد طلاب النواحي الغربية لاسيما من ندرومة ومستغانم وتنس وتلمسان ووهران.

#### الهوامش:

- 1 - مازونة: مدينة عتيقة تقع نحو أربعين ميلا من البحر المتوسط، ذات حدود فلكية بين خطي عرض 36.03° و 36.07° درجة شمال خط الإستواء وخطي طول 0.45° و 0.53° درجة شرق خط غرينتش. وهي بذلك تعد بوابة الإقليم الغربي، إختلف الباحثون في تاريخ تأسيسها فوجدت عدة آراء منها أنها بلدة قديمة أسسها الرومان، بدليل ما قاله الرحالة الإسباني مارمول Marmoul الذي جال في المغرب خلال القرن السادس عشر الميلادي، حيث اعتمد في ذلك على وجود الآثار الرومانية واللوحات المنقوشة. في حين وجد رأي مفاده أن المنطقة كانت معمورة منذ العهد النوميدي بدليل وجود القبائل البربرية وبالخصوص قبيلة مغراوة ذات الصيت الكبير في بلاد المغرب الإسلامي، وهو الرأي المرجح لحد الآن. مولاي بالحميسي، مازونة مقصد الدارسين وقلعة الخليليين، منشورات المجلس العلمي، الجزائر، 2005، ص: 03.
  - 2- جنان الطاهر، مازونة عاصمة الظهرة: ثغر حربي ومركز إشعاع حضاري، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2005، ص: 09.
  - 3- أبوراس الناصر، فتح الإله ومنته في التحدث بفضل ربي ونعمته: حياة أبي راس الذاتية والعلمية، حققه وضبطه وعلق عليه محمد بن عبد الكريم الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1990، ص: 20.
  - 4- صالح بوشيش، المدارس الفقهية في الجزائر خلال العهد العثماني، مجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية، جامعة الجزائر، العدد الأول، 1425هـ-2004م، ص: 142-143.
  - 5- مولاي بالحميسي، المرجع السابق، ص: 21.
  - 6- وثيقة تاريخية موجودة بخزانة كتب المدرسة الفقهية في مازونة مؤرخة يوم: 09 فيفري 1910 إلى السيد المتصرف بدائرة أرنو سيدي محمد بن علي-غليزان حاليا.
  - 7- عبد الله ابن محمد بن الشارف ابن علي حشلاف، سلسلة الأصول في شجرة أبناء الرسول، المطبعة التونسية، تونس، 1929، ص: 141.
- 8-Jacques Berque, « Retour à Mazouna », in: Annales, économiques, sociétés, civilisation, n: 01 janvier- février 1972, p: 153.
- 9-Henri Leonfey, Histoire d'Oran, la domination espagnole, Edition dar el-Gharb, Alger, 2002,p: 287.

- 10- الأغا بن عودة المزاري، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، ج 1، تحقيق: يحيى بوعزيز، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990، ص-ص: 270-271.
- 11- بوكفة يوسف، مدرسة مازونة الفقهية: النهضة والسقوط، رسالة ماجستير في علم الاجتماع، الجزائر: كلية العلوم الاجتماعية بجامعة وهران، 2002-2003، ص: 28.
- 12- الواليش فتيحة، الحياة الحضرية في بايلك الغرب الجزائري خلال القرن الثامن عشر، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر، 1993-1994، ص: 105.
- 13- المرجع نفسه، ص: 106.
- 14- بوكفة يوسف، المرجع السابق، ص-ص: 85-87.
- 15- مولاي بالحميسي، المرجع السابق، ص: 30.
- 16- أبوراس الناصر، المصدر السابق، ص: 20.
- 17- مولاي بالحميسي، المرجع السابق، ص: 31.
- 18- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- 19- بوكفة يوسف، المرجع السابق، ص: 31.
- 20- مولاي بالحميسي، المرجع السابق، ص: 31.
- 21- مولاي بالحميسي، معلم القرآن في التاريخ والفقه والأدب، منشورات المجلس العلمي، الجزائر، 2007، ص: 38.
- 22- أبو راس المازوني: هو محمد بن أحمد بن هني بن محمد أبو طالب المازوني بن علي بن عبد الرحمن بن أحمد بن الشارف المازوني، المعروف بأبي راس المازوني نسبة إلى جده لأمه أبو راس الناصر العسكري، ولد بمازونة حوالي منتصف القرن 19 م من أم تدعى زولة بنت الشيخ أبي راس الناصرومن أبناءه المعروفين أحمد، محمد، ومحمد الشانبيط تولى منصب الإفتاء، كما كان مشتركا في جريدة كوكب إفريقية العربية من شيوخه والده محمد بن أحمد بن هني وعبد القادر بالحميسي وجده أحمد بن هني. حيث تولى التدريس بعد وفاة والده محمد بن أحمد بن هني، وقد كان ذا علم ووجاهة عند الناس بتمكنه بواسطة دوره التعليمي على أن يبقى الإشعاع لمدرسة مازونة الفقهية بالبايلك الغربي فدامت فترة تدريسه أكثر من 50 سنة. مولاي بالحميسي: مازونة مقصد الدارسين...، المرجع السابق، ص: 27، 28.
- 23- أبوراس الناصر، المصدر السابق، ص: 21.
- 24- مولاي بالحميسي، مازونة مقصد الدارسين...، المرجع السابق، ص: 32.
- 25- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- 26- المرجع نفسه، ص: 33.
- 27- المرجع نفسه، ص-ص: 34-35.
- 28- المرجع نفسه، ص: 35.
- 29- الأغا بن عودة المزاري، المصدر السابق، ص: 262.
- 30- ناصر الدين سعيدوني والمهدي البوعبدلي، الجزائر في التاريخ: العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص: 197.
- 31- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- 32- بوجلال قدور، العلم والعلماء في بايلك الغرب 1711-1830م: معسكر ومازونة نموذجا، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة معسكر، 2008-2009، ص: 198.
- 33- Bousquet, promenade sociologique: « une medersa dechueMazouna » in: revue africaine, 1947, pp: 412-413.
- 34- مولاي بالحميسي، مازونة مقصد الدارسين...، المرجع السابق، ص: 36.

- 35- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- 36- بوكفة يوسف، المرجع السابق، ص: 52.
- 37- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي: من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري 16-20م، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ج 1، 1981، ص: 348-349.
- 38- بوكفة يوسف، المرجع السابق، ص: 53.
- 39- ناصر الدين سعيدوني والمهدي البوعبدلي، المرجع السابق، ص: 196-197.
- 40- بوكفة يوسف، المرجع السابق، ص: 52.
- 41- المرجع نفسه، ص: 55.
- 42- العيد مسعود، "حركة التعليم في الجزائر خلال العهد العثماني"، مجلة سيرتا، العدد: 03، رجب 1400هـ-ماي 1980م، ص: 67.
- 43- محمد سي يوسف، "نظام التعليم في بلاد زواوة بإيالة الجزائر خلال العهد العثماني"، ملتقى الحياة الفكرية في الولايات العثمانية، تقديم: عبد الجليل التميمي، منشورات مركز الدراسات في البحوث العثمانية والمورسكية والتوثيق والمعلومات، تونس، 1990، ص: 206-207.
- 44- مولاي بالحميسي، مازونة مقصد الدارسين...المرجع السابق، ص: 38.
- 45- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص: 348.
- 46- مولاي بالحميسي، مازونة مقصد الدارسين...المرجع السابق، ص: 24.
- 47- المرجع نفسه، ص: 26.
- 48- جنان الطاهر، المرجع السابق، ص: 60-61.
- 49- بوكفة يوسف، المرجع السابق، 59.
- 50- أحمد ابن سحنون الراشدي، الثغر الجماني في إبتسام الثغر الوهراني، تحقيق وتقديم: المهدي البوعبدلي، مطبعة البعث، الجزائر، 1973، ص: 235.
- 51- مولاي بالحميسي، مازونة مقصد الدارسين...المرجع السابق، ص: 22.
- 52- بوكفة يوسف، المرجع السابق، ص: 60.
- 53- المرجع نفسه، ص: 60-61.
- 54- Moulay Belhamissi, histoire de Mazouna, des origines à nos jours, S.N.E.D, Alger, p.p.: 45-49.
- 55- محمد بن يوسف الزياتي، دليل الحيران وأئيس السهران في أخبار مدينة وهران، تقديم وتعليق: المهدي البوعبدلي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1978، ص: 165.
- 56- مولاي بالحميسي، مازونة مقصد الدارسين...المرجع السابق، ص: 10.
- 57- جنان الطاهر، المرجع السابق، ص: 62.
- 58- عبد الرزاق إنعمادوش، رحلة إنعمادوش الجزائري المسماة: لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والجال، تقديم وتحقيق وتعليق، أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، 1983، ص: 262.
- 59- مولاي بالحميسي، مازونة مقصد الدارسين...المرجع السابق، ص: 41.
- 60- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- 61- الأغا بن عودة المزابي، المصدر السابق، ص: 106.
- 62- مولاي بالحميسي، مازونة مقصد الدارسين...المرجع السابق، ص: 41.
- 63- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- 64- جنان الطاهر، المرجع السابق، ص: 65.

- 65- المرجع نفسه، ص: 67.
- 66- أبوراس الناصر، المصدر السابق، ص: 44.
- 67- جنان الطاهر، المرجع السابق، ص: 67-68.
- 68- أبوراس الناصر، المصدر السابق، ص: 44.
- 69- جنان الطاهر، المرجع السابق، ص: 68.
- 70- أبوراس الناصر، المصدر السابق، ص: 44-45.
- 71- المصدر نفسه، ص: 45.
- 72- جنان الطاهر، المرجع السابق، ص: 69.
- 73- أبوراس الناصر، المصدر السابق، ص: 46.
- 74- جنان الطاهر، المرجع السابق، ص: 69.
- 75- أبوراس الناصر، المصدر السابق، ص: 46.
- 76- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
- 77- يوجلال قدور، المرجع السابق، ص: 230.
- 78- أبوراس الناصر، المصدر السابق، ص: 43.
- 79- المصدر نفسه، ص: 45.
- 80- المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
- 81- المصدر نفسه، ص: 46.